Majallah Al-Qism Al-Arabi
University of the Punjab,
Lahore - Pakistan.
No.19, Issue: 2012

مجلة القسم العربي
جامعة بنجاب، لاهور – باكستان.
العدد التاسع عشر، 2012م.

المحسنات اللفظية في الأدعية القرآنية

د.كفايت الله همداني
محاضر في قسم اللغة العربية
الجامعة القومية للغات الحديثة إسلام آباد

Abstract

(Rhetoric pictures in Quranic Invocations)

It is a matter of fact that the Holy Quran is characterized by rhetoric and elequancy . This rhetoric and elequancy appear in the Quranic invocations. So I have adopted the rhetorical aspects of the Quranic invocations as a subject matter of my article. There are three kinds of the rhetoric:

(1)	(Elm –Ul-Bayan)	علم البيان
(2)	(Elm-Ul-Maani)	علم المعاني
(3)	(Elm-Ul-Badea)	علم البديع

In this article Quranic Invocations will be mentioned in the light of " علم البديع". It will focus the almuhassanat allafziah in Quranic Invocations المحسنات اللفظية في الأدعية القرآنية.

بعث الله سيد المرسلين وخاتم النبيين في الأمة العربية، التي كانت تفتخر بفصاحتها وتعتز ببلاغتها، وكان العرب يعدون أنفسهم أمراء البيان، حيث كانوا

يسمون سائر الناس عجماً، وأيد الله سبحانه وتعالى رسول الله ﷺ بالقرآن معجزة له في الكلام ، وجاء التحدي بقوله تعالى:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَآءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (1).

وإن كانت بلاغة القرآن في كلامه المعجز تظهر بصورة واضحة وجلية ، تأخذ بمجامع القلوب، وتأسر العقول وتؤثر في النفوس، فإنها أبدى وأجلى وأوضح خلال تلك الصيغ التي ذكرت في القرآن عند التضرع إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء. لأن الله تعالى ذكر في هذه الأدعية أسلوب الأنبياء والمؤمنين وغيرهم الذين دعوا ربهم بخضوع وخشوع فكلمات وألفاظ الأدعية القرآنية وارفة بالبلاغة فلا ريب فيه أن الأدعية القرآنية دليل مستقل من دلائل الإعجاز القرآني العظيم. وأن الأدعية القرآنية كما كانت مليئة بالأسرار الروحانية، كذلك مزينة بالمحاسن الأدبية اللفظية والمعنوية.

لا ريب في أن عبارات الأدعية، قد تحوت من المحسنات اللفظية حظوظاً موفورة، فيتلألأ من أدراج قرائنها خصائص الإلهام، فتراها ممتلئة بالروعة وحسن الإلتئام، مستدعية ميل المصغي إليه بالاشتياق والإعظام فإن نفسه ترى فيها حسن الإفادة، متشحة في "الجناس مثلاً" من صورة التكرار والإعادة، فتأسرها عذوبة الألفاظ وأساليب البيان التي تفوق كل أساليب البشر.

وذلك ليؤازر اللفظ المعنى المراد، في الأدعية القرآنية، وليتفق المصنوع منها مع المطبوع، ولمراعات النظائر المستحسنة الوقوع، ولتمكن القرائن من تبيان الموضوع، فترى معانيها عندئذ مسترسلة على سجاياها، مكتسبة من الألفاظ زينتها ومزاياها.

المحسنات اللفظية في الأدعية القرآنية

1– حسن الافتتاح وبراعة الاستهلال

أحسن الابتداءات ما ناسب المقصود ويسمى " براعة الاستهلال"، وهو أن يكـون مطلع الكلام دالاً على غرض المتكلم من غير تصريح بل بإشارة لطيفـة.

وخير مثال له قوله ﷻ: "﴿ الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ۞ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۞ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ۞ (2)﴾"

تظهر"براعة الاستهلال" في استهلال القرآن بالفاتحة فجاءت مشتملة على مقاصده. يقول السيوطي في الإتقان : " ومن الابتداء الحسن نوع أخص منه يسمى "براعة الاستهلال" ، وهو أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه، ويشير إلى ما سبق الكلام لأجلهن والعلم الأسنى في ذلك سورة الفاتحة التي هي مطلع القرآن ، فإنها مشتملة على جميع مقاصده فنبه في الفاتحة على جميع مقاصد القرآن، وهذا هو الغاية في "براعة الاستهلال" مع ما اشتملت عليه من الألفاظ الحسنة والمقاطع المستحسنة وأنواع البلاغة " (3)

2- حسن الختام

يقول أحمد الهاشمي في كتابه : "هو أن يجعل المتكلم آخر كلامه عذب اللفظ حسن السَّبْكِ صحيح المعنى، مشعر بالتمام حتى تستحق براعة المقطع بحسن الختام، إذ هو آخر ما يبقى منه في الإسماع. (4)"

مثال حسن الختام في الأدعية القرآنية

قوله ﷻ : "﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (5)"

ويختم أولو الألباب دعاءهم باستنجاز وعد الله تعالى وثوابه والاستعفاء من الخزي يوم القيامة وعذابه "﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ

الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾" وهذا الابتهال(يدل على شدة الخوف من هذا الخزي، وشدة تذكره واستحضاره في مطلع الدعاء وفي ختامه، مما يشي بحساسية هذه القلوب ورقتها وشفافيتها وتقواها وحيائها من الله) (6)

3- حسن الابتداء

يقول أحمد الهاشمي في كتابه : "هو أن يجعل أول الكلام رقيقاً سهلاً واضح المعنى مستقلاً عما بعده، مناسباً للمقام بحيث يجذب السامع إلى الإصغاء بكليته، لأنه أول ما يقرع السمع وبه يعرف مما عنده .(7)"

كقوله ﷻ : "﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾"(8)

ويتأمل هذا المعنى اللغوي للفظ (رب) ثم ملاحظة استهلال الدعاء بها مع إضافتها لياء المتكلم نقول بتأمل ذلك نشعر بكمال الخضوع والتذلل من الداعي مما يكون أدعى للاستجابة والقبول عند الله ﷻ لذا كان لفظ (رب) الذي يفيده الخصوص هنا هو الذي يتناسق مع لفظ الجلالة يا (الله)مثلاً الذي يفيد العموم .

4- الجناس اصطلاحاً:

" حقيقة التجنيس في مصطلح علماء البيان هو": "أن تتفق اللفظتان في وجه من الوجوه يختلف معناهما(9)."

أنواع الجناس:

يقول صاحب كتاب المنار في بيان أنواع الجناس: ومن هنا كان الجناس نوعين: "تام" و "غير تام"(10).

التام: حقيقة أن يتفق اللفظان في كل من : (١) عدد الحروف (٢) نوعها (٣) ترتيبها (٤) هيئاتها(11).

و نحو قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾"(12)

و نكتفي هنا بذكر أنواع الجناس الواردة في الأدعية القرآنية.

شواهد الجناس في الأدعية القرآنية

جناس الاشتقاق: "هو أن يتوافق اللفظان في الحروف الأصول مرتبة مع الاتفاق في أصل المعني و يسمي الاقتضاب".

قال الله ﷿ : ﴿" رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (13)"

جناس الاشتقاق بين كلمتي ، " تب " و " تواب " .

قال الله ﷿ : " ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ " (14)

جناس الاشتقاق بين كلمتي " الحكمة " و " الحكيم " .

الجناس المغاير:

"هو أن يكون الكلمتان اسماً وفعلاً (15)"

كقول الله ﷿ :﴿ " وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (16) "

الجناس المغاير في قوله آمنا و قوله آمن .

قال الله ﷿ : "﴿ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ " (17)

الجناس المغاير في قوله " هب " و قوله " الوهاب".

الجناس اللفظي الناقص : "هو ما اختلف حروفه سواء أ كان الاختلاف في النوع أو العدد أو الهيئة أو الترتيب. "

قال الله ﷻ : "﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (18)"

الجناس الناقص بين كلمتي " المالك " و " الملك ".

الجناس اللاحق: وهو ما يكون باختلاف اللفظين في حرفين، مع بعد مخرجهما.

كقوله ﷻ : "﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ (19)"

الجناس اللاحق بين كلمتي " نصير " و " النذير " لعدم تقاربهما في المخرج. وبين كلمتي " يتذكر" وتذكر" جناس الاشتقاق والجناس المغاير.

أمثلة أخرى: قال الله ﷻ : "﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴾ (20)"

جناس الاشتقاق وجناس المغاير بين كلمتي " دعوت و دعاء" .

الجناس اللاحق بين كلمتي " فلق " و " خلق" لعدم تقاربهما في المخرج.

قال الله ﷻ : ﴿"وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ "(21)

الجناس المغاير وجناس الاشتقاق بين كلمتي " حاسد و حسد ".

قال الله ﷻ : " ﴿ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ (22)"

الجناس المغاير بين كلمتي " الوسواس ويوسوس". والجناس المتوج في قوله " الخناس" وقوله " الناس" لكون الزيادة في أول أحدهما.

5- **السجع في الاصطلاح :** يقول أحمد الهاشمي في كتابه : هو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير من النثر، وأفضله ما تساوت فقره. وهو ثلاثة أقسام(23) (1) المرصع (2) المتوازي (3) المطرف . (24)

كقوله تعالى "﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ۞﴾(25) "

هنا التسجيع في ﴿الرحيم﴾ و﴿المستقيم﴾ و في ﴿نستعين﴾ و ﴿الضالين﴾ والتسجيع هو اتفاق الكلمتين في الوزن .(26)

السجع المرصع :

"وهو أن تكون الألفاظ المتقابلة في السجعتين متفقة في أوزانها وفي أعجازها، (أي : في الحرف الأخير من كل متقابلين فيها(27)" كقوله ﷻ :﴿ فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۞ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ(28) ﴾ وهناك السجع في كلمتين آخرين وهما ﴿ لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ و ﴿الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ . "

السجع المطرف:

السجع المطرف عبارة عن الفاصلتين المتفقتين في التقفية دون الوزن العروضي. فربما نرى الأسجاع في الأدعية القرآنية متوافقة في الحرف الأخير من كل قرينة من قرائنها. وأما ما قبل الفواصل فيكون مطلقا من قيد التوافق في الوزن والتقفية مثل دعاء المسافر حينما يستوي على المركب : " ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۞ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾(29) "

السجع بالتقديم والتأخير

قد نجد تقديم بعض العناصر عن موقعه الطبيعي النحوي و تأخيرها في الجملة الدعائية حفاظا على ذلك الصنيع و رعاية للتناغم الصوتي المنبع من رؤس الآي، من دون الإخلال بالمعنى المقصود. ومن غير تهجين الخيال الرائع المنضود، مثل: "﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (30)﴾ " ونحوه الدعاء:

﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (31) فتقدم الجار و المجرور في هاتين الجملتين يظهر فيه الانسجام بين الفاصلتين في الآيتين.

6- البراعة :

ومن عناصر الجمال الأدبي في الكلام البراعة في إبراز وتصوير الأحاسيس والمشاعر النفسية والأفكار وقد تكون هذه البراعة بتقديم الفكرة من خلال نظير حسي، أو بالمبالغة في تصويرها ، أو تصوير آثارها ، أو غير ذلك . (32)"

"قوله ﷻ :﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ (33)."

ففي تصوير تسارع انتشار الشيب في رأسه حتى عم الرأس بحالة الاشتعال الذي يسارع انتشاره في الهيشم ، براعة تدل على الحالة النفسية التي أخذ يعاني منها، والتي بدأت تكوية بنار اليأس التي أخذ لهبها ينتشر شيباً في شعر رأسه.(34)

شواهد الإيقاع والموسيقى الناشئ من السجع في الأدعية القرآنية

وهذا هو الإيقاع الداخلي المنفجر من اختيار الألفاظ مفردة أو مركبة ذات وقع خاص. والمنبجس من ائتلاف تلك الألفاظ بعضها ببعض في صورة صوتية معينة. وهي التي تفصح عن جمال مفرداتها و عن تشكل عناصر الإثارة للسامع و اكتساب الروعة في السامع و روعة متحركة للنفوس، جاذبة لقوى التعقل و الإحساس في الرؤس.

حيث تنظم فيها الأصوات على نهج خاص من التعبير،فتبعث الإثارة و الإمتاع بالتفكير، ويجسد الإحساس بالجمال أمام المستمع، و يؤدي ذلك إلى التوافق بين الدلالة و الإيقاع أو التجانس بين معنى العبارة و حروفها عند السماع.

كما نرى ذلك في قوله تعالى: ﴿" رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۞ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۞ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ۞ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ (35)"

حيث يحتوى على أربع جمل قصيرة، ذات إيقاع و نغمه مثيرة مع إتحاد الحرف الروي في الأولين و هو الراء. فإذا قرأها القارئ قراءة فنية يشعر في كل من هؤلاء طابعا

إيقاعيا واضحا ، ويرى نغمة ملائمة مع تعدد الأفكار النحوية في النص الدعاء و المقاصد المطلوبة.

قوله ﷻ : ﴿" قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ۞ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا "﴾ (36)

وورد عن هذا في (البنية الايقاعية):

" فإن أول شيء يستدعي انتباهنا، بل أسماعنا، هو تلك الصيغة المبالغة المتمثلة في لفظة (كبّارا) ، إذ أحدثت هذه اللفظة إيقاعية خاصة ذات جرس يتصل بالنطق والسماع، كما ولدت نغمة مشوبة بالقوة والعنف، إذ أن صيغة (كباراً) ، وهي صفة لمكر قوم نوح عليه السلام تفيد توضيحاً وبلاغة في المعنى، كما تفيد في الوقت نفسه، وقعاً شديداً على النفس، الأمر الذي يحدث إيقاعية تشبع الفم وتملؤه انتفاخاً ضغطاً، وفي الوقت نفسه، تشعر هذه الإيقاعية النفس وكأنها تنحدر إلى الأرض تعبيراً عن شدة مكر الماكرين". (37)

فلنستمع إلى نوع من هذه الموسيقى. " إنها موسيقى الدعاء المتموجة الرخية الطويلة الخاشعة"(38) كما وصفه سيد قطب.

قوله ﷻ ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۞ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۞ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ (39) إن البيان لا يرقى هنا إلى وصف العذوبة التي تنتهي في فاصلة كل آية بيائها المشددة وتنوينها المحوّل عند الوقف ألفاً لينة كأنها في الشعر ألف الإطلاق: فهذه الألف اللينة الرخية المناسبة تناسقت بها (شقياً ، ولياً ، رضياً) مع عبد الله زكريا، ينادي ربه نداءً خفياً !!.

إن في تكرار عبارة (ربنا) لما يُلين القلب، ويبعث فيه نداوة الإيمان، وإن في الوقوف بالسكون على الراء المذلقة المسبوقة بهذه الألف اللينة لما يعين على الترخيم والترنيم، ويعوض في الأسماع أحلى ضربات الوتر على أعذب العيدان ! .

7- أسلوب التصوير

إن التصوير هو أداء المعاني المجردة عن المادة بصورة مهتزة، يكاد الخيال يجسم تلك المعاني. تصوير الأمور المعنوية بصورة حسية، توضح الفكرة و تقررها في ذهن السامع.

و أيما كان فأسلوب الأدعية القرآنية و لاسيماما ورد منه بالوحي الجلي الالهي يهيئ للمعاني كلها سحرية متناسقة الإيقاع و يرسم لها صورة حية في جميع تلك البقاع حيث تكسبها جمالا و قوة ذات هدف معين لها في النفس أثر خلاب فنرى خصائص الكلم تنطبق على المعاني و يزيد عليها ذلك النسق السماح لكل لفظ إتساعه و شحنه من الإيقاع و الدلال و الصور و الظلال.

قال الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم:

" من السمات البارزة للأسلوب القرآني هو اعتماده على الطريقة التصويرية للتعبير عن المعاني والأفكار التي يريد إيضاحها، وسواء كانت معاني ذهنية مجردة أو قصصاً غابرة، أو مشاهد ليوم القيامة وغيرها من المجالات. "(40)

استخدمها الشارع في الأدعية القرآنية عنه بأطوار شتى و أوضاع مختلفة. نحو دعاء المجاهد: "﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ " (41) و كدعائه: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (42) و مثل:

"﴿ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ "(43)﴾ حيث صور القرآن الحكيم المعاني المجردة بصورة حسية ،وهي الأحوال النفسية من الصبر على مصائب الجهاد، واصطبار القلب و ربطه بصورة تثبيت الأقدام التي لا تزلزل و لا تنخلع فرارا من الزحف في المعركة الدامية.

و كذلك نرى تلك المعاني مصورة بصورة إفراغ الماء البارد من فوق الرأس مدرارا، فيصيب كل الجسم انحدارا. و مثل ذلك تصوير الدين السماوي و هو الأمر المعنوي بصورة السبيل المحسوس المعهود الموصل إلى الفلاح المقصود.

8- التصوير بصورة القصة

يعبر ابن عاشور عن أسلوب القصة تفصيلاً: " وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم هذه منقبة ثالثة لإبراهيم عليه السلام ، وتذكير بشرف الكعبة ، ووسيلة ثالثة إلى التعريض بالمشركين بعد قوله ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة إلخ ، وتمهيد للرد على اليهود إنكارهم استقبال الكعبة الذي يجيء عند قوله تعالى سيقول السفهاء ولأجل استقلالها بهذه المقاصد الثلاثة التي تضمنتها الآيات قبلها عطفت على سوابقها مع الاقتران بإذ تنبيها على الاستقلال وخولف الأسلوب الذي يقتضيه الظاهر في حكاية الماضي أن يكون بالفعل الماضي بأن يقول وإذ رفع إلى كونه بالمضارع لاستحضار الحالة وحكايتها كأنها مشاهدة لأن المضارع دال على زمن الحال فاستعماله هنا استعارة تبعية، شبه الماضي بالحال لشهرته ولتكرر الحديث عنه بينهم فإنهم لحبهم إبراهيم وإجلالهم إياه لا يزالون يذكرون مناقبه وأعظمها بناء الكعبة فشبه الماضي لذلك بالحال ولأن ما مضى من الآيات في ذكر إبراهيم ﵇ من قوله ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ (44)﴾ إلى هنا مما يوجب امتلاء أذهان السامعين بإبراهيم وشؤونه حتى كأنه حاضر بينهم وكأن أحواله حاضرة مشاهدة وكلمة (إذ) قرينه على هذا التننزيل .. "(45)

ويقول عن الدعاء: " وجملة ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ مقول قول محذوف يقدر حالاً من ﴿ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ وهذا القول من كلام إبراهيم ﵇ والعدول عن ذكر القول إلى نطق المتكلم بما قاله المحكي عنه هو ضرب من استحضار الحالة قد مهد له الإخبار بالفعل المضارع في قوله : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ ﴾ حتى كأن المتكلم هو صاحب القول وهذا ضرب من الإيغال. "(46)

ثم يتقدم القصة ويستمر جو الدعاء إيقاعية الرجاء والطلب. وبينما نحن في انتظار بقية الخبر، إذا بالسياق يكشف لنا عنهما، ويرينا إياهما، كما لو كانت رؤية عين لا رؤيا خيال، إنهما أمامنا حاضران ، نكاد نسمع صوتيهما يبتهلان:

﴿" رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۞ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۞ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ (47)"

فنغمة الدعاء وموسيقى الدعاء وجو الدعاء، كلها حاضرة كأنها تقع اللحظة شاخصة متحركة.. وتلك إحدى خصائص التعبير القرآني الجميل. رد المشهد الغائب الذاهب، حاضراً يسمع ويرى، ويتحرك ويشخص، وتفيض منه الحياة ... إنها خصيصة" التصوير الفني" بمعناه الصادق ، اللائق بالكتاب الخالد."(48)

9- ائتلاف اللفظ مع المعاني

"هو أن تكون ألفاظ الكلام ملائمة للمعنى المراد منها. (49)"

شواهد ائتلاف اللفظ مع المعاني في الأدعية القرآنية

قوله ﷻ : "﴿ الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ۞ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۞ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ(50)﴾"

وهذا مظهر من مظاهر الدقة والوضوح في اختيار الألفاظ في أسلوب القرآن الكريم، فالقرآن يراعي ما بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالاتها، ويوظف كل لفظ بحيث يؤدي معناه في دقة فائقة، فكل لفظة في القرآن وضعت لتؤدي نصيبها من المعنى أقوى أداء، وألا تستخدم لفظ مكان آخر.

وإذا كان القرآن يراعي الدقة في اختيار الألفاظ فإنه يراعي ذلك في تركيب الجمل ونظمها وبنائها، لتؤدي دلالات معينة لا تؤدي إلا بها. فالجملة القرآنية تركيب لا يسد غيره مسده، ومما يشهد لهذا ويؤكد صحته إيثار الجملة الاسمية على الجملة الفعلية في آية ﴿ الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فما سر هذا الاختيار ؟ .

بالتدبر وإنعام النظر وانطلاقاً من الفروق بين الجملة الاسمية والجملة الفعلية نجد أن نظم الآية على ما هو عليه يؤدي دلالة معينة تعجز صور التعبير الأخرى عن أدائها على وجهها الدقيق.

فنظم الآية " يفيد أن الحمد ثابت لله تعالى، وأنه ﷻ كان محموداً قبل حمد الحامدين له، فسواء منهم حمدوا أو لم يحمدوا فهو محمود من الأزل إلى الأبد، بحمده القديم وكلامه القديم. "

وأما التعبير بالفعل (أحمد أو نحمد الله) فلا يفيد أكثر من الإخبار بحدوث الحمد من العبد لخالقه، وما وراء ذلك من المعاني مسكوت عنه ولا يمكن للفعل أن يدل عليه) (51) .

والمتأمل دلالة النعت المضاف ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يجد أن وصف المعبود بالربوبية في مقام الدعاء والثناء (أقرب ـ كما يقول العلامة الألوسي ـ لدر ثدي الإجابة وأقوى لتحريك عرق الرحمة) (52) .

وتأتي آية ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ لتثبت صفة كمال لله تعالى تضاف إلى صفات الكمال السابقة" الرب" الرحمن ، الرحيم ، المالك " . والمولى ﷻ مالك ومتصرف في الأيام كلها، وفي كل شيء ، فما وجه تخصيص يوم الدين بالإضافة؟ وما دلالته البلاغية ؟

"والإضافة هنا ـ كما يقول المفسرون ـ (لتعظيم ذلك اليوم أو تهويله أو لبيان تفرده تعالى بإجراء الأمر فيه) (53)."

هذا والثناء على الله بتلك الصفات الجليلة بعد الدلالة على اختصاص الحمد به تعالى اقتضى خطابه بتخصيصه بغاية الخضوع والاستعانة، لهذا جاء النظم على هذه الصورة. ﴿" إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . " (54)

وقوله ﷻ : "﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ "

فأصرح الخطاب لما ذكر النعمة ثم قال : " ﴿ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ ﴾ "عطفا على الأول، لأن الأول موضع التقرب من الله يذكر نعمه وآلائه فلما صار إلى ذكر الغضب جاء باللفظ منحرفاً عن ذكر الغاضب فأسند إليه النعمة لفظاً وزوي عنه لفظ الغضب تحنّنا ولطفاً.(55)

قوله ﷻ :﴿ " رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء(56)﴾"

وقال زكريا عليه السلام في دعائه : "﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء ﴾" ولم يقل هب لي ذرية طيبة، لأن " حصوله في العرف والعادة له أسباب مخصوصة، فلما طلب الولد مع فقدان تلك الأسباب كان المعنى: أريد منك إلهي أن تعزل الأسباب في هذه الواقعة، وأن تحدث هذه الولد بمحض قدرتك من غير توسط شيء من هذه الأسباب " (57).

والمراد بكلمة ﴿ ذُرِّيَّةً ﴾ النسل، وهي كلمة تقع على الواحد والجمع والذكر والأنثى.

و زكريا عليه السلام حرص على أن يهبه الله ولداً صالحاً يكون نسله صالحين .

وتأنيث ﴿ طَيِّبَةً ﴾ لتأنيث الذرية في الظاهر، فالتأنيث والتذكير في أسماء الأجناس تارة يجيء على اللفظ وتارة على المعنى (58) .

ووصف الذرية بـ ﴿ طَيِّبَةً ﴾ ، لأنها هي التي يرجى منها خير الدنيا والآخرة، وهي التي تعمل الأعمال الصالحة النافعة لها ولآبائها ولجماعة المؤمنين.(59)

وفي ختام الآية بقوله : ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء ﴾

10- حسن الترتيب

هذا من أهم موضوعات علم البديع وتشتمل على النظم الرائعة بين أفكار والبيان حتى يحس القاري روعة حسن البيان وتنسيق ا لكلام .

كقوله عزّ وجلّ:﴿" رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ۞ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ۞ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (60)﴾ "

في قوله عزّ وجلّ ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ فقد استوهب الحكم أولاً ثم طلب الإلحاق بالصالحين، والسر فيه دقيق جداً ، ذلك أن القوة النظرية مقدمة على القوة العلمية ، لأنه يمكنه أن يعلم الحق وأن لم يعمل به ، وعكسه غير ممكن ، لأن العلم صفة الروح والعمل صفة البدن : وكما أن الروح أشرف من البدن ، كذالك العلم أفضل من الصلاح.

وفي قوله عزّ وجلّ : "﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ "﴾ فاللسان مجاز عن الذكر بعلاقة السببية ، واللام للنفع ، ومنه يستفاد الوصف بالجميل .

وقوله عزّ وجلّ : "﴿ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾ (61) " وورد دعاؤهم على ترتيب بديع حيث بدؤوا بطلب غفران الذنوب وهي الكبائر من المعاصي ثم طلبوا تكفير السيئات ، وهي الصغائر ، ثم طلبوا الوفاة مع الأبرار ، وهم أفاضل الصالحين من عباد الله.

وقوله عزّ وجلّ : "﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (62)"﴾، فنجد في هذه الآية حسن الترتيب حيث طلبوا أولاً:(إفراغ الصبر على قلوبهم عند اللقاء وثانياً : ثبات القدم والقوة على مقاومة العدوّ حيث أن الصبر قد يحصل لمن لا مقاومة له ، وثالثاً: العمدة والمقصود من المحاربة وهو النصرة على الخصم حيث إن الشجاعة بدون النصرة طريق عتبته عن النفع خارجة.

11- رد العجز على الصدر:

يقول أحمد الهاشمي في كتابه : " في النثر هو أن يُجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين، أو الملحقين بهما بأن جمعهما اشتقاق أو شبهه في أول الفقرة ثم تعاد في آخرها . (63)"

ومثاله من الأدعية القرآنية مثل : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾(64) فكلمتي (هب) و (الوهاب) و إن اختلفا معنى لاختلاف هيأتيهما (فان الأول صيغة الأمر الحاضر، و الثاني صيغة المبالغة للفاعل). بيد أن الاشتقاق من (الوهب) المصدر ينظمهما في السمط الواحد. "

12- التفويت :

وهو أن يأتي المتكلم بمعاني شتي من موضوعات مختلفات ، كالمدح ، و الوصف ، و الإقرار ، والإنكار، والنصح ، والأمر ، و النهي ، وغير ذلك، ويجعل ذلك في جمل متفاصلة ، مع تساويها في الوزن بوجه العام، ويكو ن في الجمل الطويلة والمتوسطة والقصيرة.(65)

ومثال التفويت في الأدعية القرآنية

"قول الله ﷻ : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ۝﴾ (66)"

ملخص القول بأننا إذا تدبرنا في الأدعية القرآنية من جهتي صناعتها اللغوية والبيانية نجد أنها مسددة اللفظ محكمة الوضع، جزلة التركيب، متناسبة الأجزاء في التأليف فهي كلام فخم الجملة، واصنع الصلة بين اللفظ والمعنى المراد، وبين اللفظ وضريبة في التأليف والتنسيق، ثم لا نرى فيه حرفاً مضطرباً، ولا كلمة مستدعاة لمعناها أو مستكرهة عليه، ولا نجد فيه كلمة أختها من المترادفات أتم منه أداءً للمعنى أو أكمل إبرازاً لسره في الإستدام.

كذلك نجد الأدعية القرآنية بينة حسن المعرض، وبياناً واضح التفصيل، وكلاماً ظاهر الحدود، جيد الرصف بديع الإشارة غريب اللمحة ، ناصع البيان، ولا نرى فيه إجابة، ولا استكراهاً ولا نجد فيه إضطراباً، ولا خطلاً ولا استعانة من عجز، ولا ضعفاً من أي وجه، فنرى عبارة الأدعية القرآنية متواصلة متدفقة، تمر على الخاطر كالنسيم الطيب، أو تلج في مسارب الآذان، بعذوبة الألحان لا توقف فيها ولا تكلف، وذلك لأن منشئتها كان يسلم طبعه السمع ونفسه وعاطفته الرقيقة وذوقه الأدبي.

الهوامش

1. سورة البقرة، رقم الآية/ 23-24.
2. سورة الفاتحة.
3. الإتقان في علوم القرآن ، لجلال الدين السيوطي، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، ج/2 ، ص/136.
4. جواهر البلاغة ، للسيد أحمد الهاشمي ، دار المعارف، بيروت، ص/379
5. سورة آل عمران، رقم الآية/ 194.
6. في ظلال القرآن، لسيد قطب، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ج/1، ص/ 547.
7. جواهر البلاغة ، ص/ 377
8. سورة النمل ، رقم الآية/ 19.
9. معجم البلاغة العربية لبدوي طبانة، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص/١٤٠
10. المنار في علوم البلاغة، للدكتور محمد علي الحسن، مؤسسة الرسالة - بيروت ص/ ٦٠٥.
11. المنار في علوم البلاغة، ص/ ٦٠٥ .
12. الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي ، مكتبه و مطبعة مصطفي البابي الحلبي و أولاده بمصر، ج/ ٢، ص/ ٢٥١.
13. سورة البقرة، رقم الآية/ 128.
14. سورة البقرة، رقم الآية/ 129.

15. البديع في نقد الشعر ، ابن منقذ، دار الكتاب العربي بيروت، ص/ 12 .
16. سورة البقرة، رقم الآية/ 126
17. سورة آل عمران، رقم الآية/8
18. سورة آل عمران، رقم الآية/26
19. سورة فاطر ، رقم الآية/ 37.
20. سورة نوح، رقم الآية/ 5-6.
21. سورة الفلق ، رقم الآية/ 5
22. سورة الناس، رقم الآية/ 4-5.
23. جواهر البلاغة ، ص/363
24. البلاغة العربية أسسها وفنونها، لعبدالرحمن الحبنكة ، دار الفكر بيروت ص/ 505.
25. سورة الفاتحة، رقم الآية/5-7
26. إعراب القرآن الكريم وبيانه، لمحيي الدين درويش ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ج/1، ص/ 19.
27. البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ، ص/ 503.
28. سورة يونس ، رقم الآية / 86-85.
29. سورة الزخرف، رقم الآية 13-14
30. سورة الزخرف، رقم الآية/ 13.
31. سورة الفرقان، رقم الآية/ 74.
32. البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ، ج/1، ص/ 94.
33. سورة مريم ، رقم الآية/ 4.
34. البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، ج/1 ،ص/ 95.
35. سورة طه، رقم الآية/ 25-28
36. سورة نوح، رقم الآية/ 21-22.
37. البنية الإيقاعية وجماليتها في القرآن ، أستاذ محمد حرير ، دار الكتاب العربي بيروت، ج/2، ص/ 3.
38. التصوير الفني في القرآن ، لسيد قطب، دار الكتب العلمية ، بيروت، ص/ 92..
39. سورة مريم ، الآيات / 4-6 .
40. الأسلوب القرآني الفريد، للدكتور مصطفى مسلم، هذا المقال نشر على موقع :
www.55a.net/firas/arabic/indes.php?page=show_det&id=1312&select_page=9
41. سورة البقرة، رقم الآية/ 250.
42. سورة الأعراف، رقم الآية/ 126.

43. سورة غافر، رقم الآية/ 7.
44. سورة البقرة، رقم الآية/ 124.
45. التحرير والتنوير ، ص/1.
46. التحرير والتنوير ، ص/ 1.
47. سورة البقرة، رقم الآية/ 127-129.
48. في ظلال القرآن ، ص/5.
49. البلاغة العربية أسسها وفنونها ، ج/2، ص/ 520
50. سورة الفاتحة/ 6-1
51. من بدائع النظم القرآني، د. عبد الفتاح حجاب: دار الاعتصام ، ص/ 90.
52. روح المعاني، للألوسي ، دار الفكر بيروت ج/1 ، ص/ 80.
53. تفسير أبي السعود، ج/1، ص/ 25، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط/1 ، 1419.
54. مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج/15، ص/ 716، ع/ 26 ،.
55. إعراب القرآن الكريم وبيانه، لمحيي الدين درويش ، ج/1، ص/ 17.
56. سورة آل عمران، رقم الآية/ 38
57. تفسير الرازي، ج/8، ص/ 33.
58. تفسير الرازي، ج/8، ص/ 33.
59. التحرير والتنوير، لابن عاشور، دار الكتب العلمية ، ج/3، ص/ 238.
60. سورة الشعراء ، رقم الآية / 83-85
61. سورة آل عمران ، رقم الآية / 194.
62. سورة البقرة ، رقم الآية / 250.
63. جواهر البلاغة ، ص/366
64. سورة آل عمران، رقم الآية/ 8
65. البلاغة العربية أسسها وفنونها، ج/2، ص/ 529.
66. سورة آل عمران، رقم الآية/ 26--27.

فهر س المصادر والمراجع

1. الإتقان في علوم القرآن ، لجلال الدين السيوطي، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة.
2. إعراب القرآن الكريم وبيانه، لمحيي الدين درويش ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،
3. البديع في نقد الشعر ، **ابن منقذ، دار الكتاب العربي بيروت**.
4. البلاغة العربية أسسها وفنونها، لعبدالرحمن الحبنكة ، دار الفكر بيروت.
5. البنية الإيقاعية وجمالياتها في القرآن ، **أستاذ محمد حرير ، دار الكتاب العربي بيروت**،.
6. التحرير والتنوير، لابن عاشور، دار الكتب العلمية .
7. التصوير الفني في القرآن ، **لسيد قطب، دار الكتب العلمية ، بيروت**.
8. تفسير أبي السعود، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط/1 ، 1419.
9. تفسير ابن أبي حاتم الرازي، دار النشر المكتبة العصرية.
10. جواهر البلاغة ، للسيد أحمد الهاشمي ، دار المعارف، بيروت
11. روح المعاني، للألوسي ، **دار الفكر بيروت**.
12. في ظلال القرآن، لسيد قطب، دار الكتب العلمية ، بيروت.
13. مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، المكة المكرمة،المملكة العربية السعودية
14. معجم البلاغة العربية لبدوي طبانة، دار الكتب العلمية.
15. المنار في علوم البلاغة، **للدكتور محمد علي الحسن، مؤسسة الرسالة – بيروت**.
16. من بدائع النظم القرآني، **د. عبد الفتاح حجاب: دار الاعتصام** .
